

جامع سيدي غانم معلم تاريخي من آثار الأولين

د / عبد الحق معزونه

أستاذ محاضر بمعهد الآثاء

جامعة الجزائر

يقع مسجد سيدي غانم الأثري في مدينة ميلة العتيقة، يرجع تاريخ تأسيسه الأول إلى منتصف القرن الأول الهجري، على يد الفاتح العربي أبو المهاجر دينار عام 60هـ— /680م، وقد ذكر أبو المحاسن بن تغري بردي: أن أبا المهاجر دينار (62-55هـ— / 675-682م) هو من فتح المدينة سنة 60هـ—، وأسندت له قيادة المغرب والجيش الإسلامي لمواصلة الفتح في شمال إفريقيا من لدن معاوية بن أبي سفيان. ويرجح أن تكون هذه هي الفترة التي شيد فيها هذا القائد مسجدا ودارا للإمارة في هذه المدينة، ويعد هذا المعلم من أقدم المساجد في الجزائر وثاني مسجد في شمال إفريقية بعد جامع القيروان بتونس. بني المسجد على أنقاض بناية بيزنطية كما دلت على ذلك الحفريات الأثرية، ويلاحظ أن المدينة العتيقة كلها بنيت على أنقاض ومخلفات آثار المدينة الرومانية والحصن البيزنطي، حيث ما زال سور هذا الحصن يطوق المدينة العتيقة من كل جانب إلى يومنا هذا. ويعد هذا المسجد بما يحتوي عليه من شواهد مادية صفحة تاريخية تعكس الكثير من المراحل التاريخية والحضارية التي مرت بها مدينة ميلة في العصر الإسلامي.

لمحة عن تاريخ المدينة:

لقد كانت مدينة ميلة في العصر القديم ضمن ممتلكات المملكة النوميدية، وفي عام 203 ق.م استولى الملك ماسينيسا على مدينة سيرطة واضعا بذلك حدا لمملكة المصايسيل . وفي عام 46 ق.م منح الأمبراطور قيصر الجزء الشرقي لمملكة يوبا الأول إلى القائد الروماني سبتيموس الذي وزع المستعمرات السرية الأربعة على أتباعه من

الجيش الروماني، وهي سیرتا (قسنطينة)، روسيكادي (سكيكدة)، شولو (القل)، وميلاف (ميلة). وفي عام 256 أصبح لمدينة ميلة أسقف، وفي عام 336 ألف الأسقف أوبط المولود بميلة كتابا ندد فيه ببطلان الديانة الدوناتية⁽¹⁾. وابتداء من عام 431 أصبحت ميلة في يد الواندال إلى غاية عام 534م تاريخ انتصار البيزنطيين واستردادها منهم، وفي عام 439 م حُصنت مدينة ميلة بحصن بيزنطي يحتوي على 14 برجاً، ما زالت أجزاء كثيرة من بقايا أسواره قائمة إلى يومنا هذا، وظلت المدينة تحت حكم البيزنطيين إلى أن أنتزعها منهم الفاتحون المسلمون بقيادة القائد العربي أبو المهاجر دينار عام 60هـ/680م.

ميلة من منظور الجغرافيين والمؤرخين العرب:

لقد عرفت مدينة ميلة محطات تاريخية هامة في العهد الإسلامي، ولعل أهمها الانتفاضة التي قام بها سكان هذه المدينة ضد الحاكم الزيري المنصور بن علي الفتوح عام 378هـ/ 988م، والتي انتهت بدم سورها ونفي أهلها إلى مدينة باغاي⁽²⁾. وفي مطلع القرن 5هـ/ 11م استعادت المدينة حيويتها ونشاطها التجاري في ظل الحكم الحمادي حينما أصبحت مدينة قسنطينة من أهم مقاطعات المملكة في تلك الفترة، واستمرت على تلك الحالة إلى أن سقطت في يد الموحدين عام 547هـ على إثر سقوط بجاية عاصمة الدولة الحمادية، ومنذ ذلك الحين أصبحت ميلة من ممتلكات الدولة الموحدية شأنها شأن المغرب العربي كله، لمدة تفوق سبعين عاما. وفي عام 1231م استولى عليها أبو زكريا الحفصي وأصبحت تابعة للدولة الحفصية في تونس.

ويقول البكري في القرن 4هـ/ 10م أنها كانت، أي ميلة، من غرر مدن الزاب. وكانت مدينة ميلة ثابتة على ولائها لسلطة القيروان خلال النصف الثاني من القرن الثاني الهجري وكان بها ممثل لولاية طبنة عاصمة إقليم الزاب الذي كانت ميلة تابعة إليه، وقد لعبت حاميتها بقيادة مالك بن المنذر دورا هاما في قمع ثورة ابن

(1) - Gsel (St). Atlas Archéologique de l'Algerie, T.1, 2eme éd. A.N.AP.S.M.H, feuille17, p.3-.

(2) - أبي عبيد الله بن عبد العزيز البكري، كتاب المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب وهو جزء من أجزاء كتاب المسالك والممالك، مكتبة أمريكا والمشرق، ميزوناف 1956، ص.64.

الجارود وفي القضاء على ثورة الخوارج الصفرية⁽¹⁾. ولقد استمدت مدينة ميلة أهميتها من الناحية الإستراتيجية والإدارية والعسكرية والاقتصادية من موقعها على الخط الدفاعي الأمامي الإفريقي⁽²⁾. وفي وصفه لها يقول ياقوت الحموي هي آخر إقليم إفريقية بينها وبين بجاية ثلاث أيام، بينها وبين قسنطينة يوم واحد⁽³⁾، ومن الشخصيات الدعوية والسياسية الهامة التي نزلت بها الداعية أبو عبد الله الشيعي الذي قصد حمامها للتداوي من علة من حصاة كانت تعتريه، فتزل بفندق بها كان لفرجون مولى موسى بن العباس⁽⁴⁾. وفي العهد الحمادي يذكر الإدريسي⁽⁵⁾ الذي عاش في القرن 6هـ/12م، أنها كانت في طاعة يحيى ابن العزيز صاحب بجاية، كما صارت مقرا للحاكم⁽⁶⁾. وفي 1394م استولى المرينيون على قسنطينة ثم ميلة. وفي 1357م دخل أبو موسى الزياني منتصرا على ميلة. وفي العهد العثماني صارت ميلة تابعة لقسنطينة عاصمة بايليك الشرق وظلت على تلك الحال إلى أن دخلها الفرنسيون عام 1837م بعد مقاومة شديدة من طرف السكان.

لقد كشفت الحفريات الأخيرة التي جرت بداخل المسجد بين عامي 1969 و1970 أن هذا الأخير كان قد بني في بادئ الأمر فوق أنقاض بناية بيزنطية يعتقد أنها كنيسة أو معبد روماني قديم، إذ تبدو أسس وجدران البناية القديمة في أجزاء عديدة من المسجد جلية وواضحة، كما تبدو كذلك معالم المدخل مقوس أسفل أرضية المسجد في الجهة الغربية. وإن كان الجزم في ماهية المبنى صعب فإن الاعتقاد بكونه كنيس

(1) - د/موسى لقبال، دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية، (ش.و.ن.ت)، الجزائر 1979، ص.188.

(2) - CAMBUZAT(PL), Evolution des cites du tell en ifriquia . du 7 au 11 siecle opu Alger 1982, p.166

(3) - ياقوت الحموي (شهاب الدين)، معجم البلدان، ص.226. الجزء 08. القاهرة 1906: - وانظر كذلك - المراكشي (عبد الواحد)، المعجب في تلخيص اخبار المغرب. تحقيق سعيد العريان. القاهرة 1963. ص.442.

(4) - القاضي النعمان، افتتاح الدعوة، تحقيق فرحات الدشراوي، الشركة الوطنية للتوزيع تونس ط.2، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ص.51-50.

(5) - الإدريسي (الشريف) وصف إفريقيا الشمالية والصحراوية، جزء من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، تصحيح ونشر هنري بيريس، الجزائر 1372هـ/1957م، ص.66-67. وانظر : لمجهول، كتاب الإستبصار في عجائب الأمصار، تقدم الفريد دو كرميد. فيينا. المطبعة الملكية - 1852. ص.166.

(6) - Cambuzat; op.cit.p.170

بيزنطي أقرب إلى الحقيقة لكون الكنائس أولى أن تتخذ كمساجد للمسلمين أو أن تبنى فوقها المساجد بحكم التخطيط المعماري والطبيعة والوظيفة التعبدية للمكان. وكان الهدف من إجراء هذه الحفريات هو مواصلة الأبحاث بداخل المسجد العتيق، وقد أدت هذه التنقيبات إلى نتائج هامة تمثلت في اكتشاف محراب المسجد، والعثور على قطعة نقدية يعود تاريخها إلى العهد الإدريسي وقطعة حصية نقش عليها كتابة بخط كوفي أولي، كما عثر الباحثون الأثريون أثناء تلك الحفريات على قطع كثيرة من الجص تزينها زخارف متنوعة نقشت بأسلوب الحفر البارز إضافة إلى اكتشاف أسوار مبنية بحجر الدبش تعود إلى العصر الوسيط⁽¹⁾. وقد ركز معظم الرحالة والجغرافيين العرب على وصف الأسوار والأسواق وما تنتجه أرباض وأحواز المدينة الخصبة لوفرة المياه بها، من خضر وفواكه وحبوب لكن دون التطرق بالحديث لا من بعيد ولا من قريب إلى المسجد ودار الإمارة، باستثناء البكري⁽²⁾ الذي أشار، في معرض وصفه لمدينة ميلة، إلى وجود مسجد ملاصق بدار الإمارة، دون أن يعطي تفاصيل أكثر عن هذين المنشأتين، فقال: "عليها سور صخر اليوم، وحولها ربض وبها جامع وأسواق وحمامات والمياه تطرد حولها." وجاء ذكر البكري للجامع في سياق سرد عام لمختلف مكونات المدينة ولم يفرد له وصفا خاصا به ولم يذكر تاريخ بنائه، مما يدل على عدم اهتمامه بهذا المعلم الديني الهام أو عدم معرفته به وتاريخه والامر ببنائه. وإذا كان البكري قد أشار للمسجد فالإدريسي وصاحب كتاب الاستبصار لم يشير قط في وصفهما للمدينة إلى مسجدها واكتفوا بوصف مرافق أخرى، هل كانت المدينة في عدهما خالية من المسجد أم أنهما لم يزورا المدينة واعتمدوا في وصفهما على المنقول، هناك علامة استفهام حول هذا الموضوع، لكن عدم إشارتهما للمسجد لا ينفي وجوده لأن المسجد عنصر أساسي ووحدة رئيسة في المدينة الإسلامية وعدم ذكره ربما يرجع لكون المسجد من المسلمات ليس إلا.

(1) - عن هذه الحفريات أنظر سيد أحمد باغلي ومنير بوشناق، أبحاث وأعمال، مجلة الآثار الجزائرية العدد. 5، 1971-74، ص 11.

(2) - البكري، المصدر السبق، ص 64.

ظروف بناء المسجد:

لقد سلك أبو المهاجر دينار سياسة مغايرة لأسلافه، حيث اقترب من الأهالي وعاملهم بلين ولطف، فنجح بذلك في استمالة قلوب الكثير من البربر إلى الدين الإسلامي، وهو ما ساعده على التوغل أكثر في المغرب الأوسط، فاستولى على عمالة قسنطينة سنة 59هـ، وجعل مدينة ميلة مركز القيادة العليا لشمال إفريقيا لستين كاملتين، فابتنى بها دار إمارة ومكث بها سنتين⁽¹⁾. وهكذا صار هذا القائد العربي المسلم أول من تطأ قدماه بلاد المغرب الأوسط⁽²⁾.

وعلى الرغم من عدم توفر الأدلة المادية الكافية لتحديد تاريخ بناء مسجد ميلة بدقة، إلا أن المرجح أن لبناته الأولى تكون قد وضعت في بداية الفتح الإسلامي لهذه المدينة التاريخية لسببين رئيسيين:

- أولهما أن المسلمين عرفوا باهتمامهم البالغ ببناء المساجد حيثما حطوا رحالهم قبل التفكير في بناء أي منشأة أخرى، وهو ما فعلوه في معسكراتهم بالكوفة والفسطاط والقيروان، ولذلك فأول ما فعله جيش الفاتحين بقيادة أبي المهاجر دينار بعد دخول المدينة هو بناء مسجد فيها واتخاذها مقرا لانطلاق حملاتهم الجهادية في اتجاه الغرب إلى أن بلغوا مدينة تلمسان⁽³⁾. ولما كانت مدينة ميلة تمثل غرة حدود الإقليم الإسلامي في مواجهة الأعداء فقد أهلها موقعها الجغرافي والاستراتيجي أن تلعب هذا الدور الريادي للفتح والتوغل أكثر في قلب المغرب العربي.

- وثانيهما الدلائل المادية التي تؤكد أقدمية هذا المسجد، إذ تقع أسسه مباشرة فوق بقايا أثرية بيزنطية، يعتقد أنها كنيسة، أو معبد روماني وثني، فضلا عن ذلك، فإن وجود المحراب في وسط الجدار الجنوبي للمسجد، يبعث على الاعتقاد بأقدمية

(1) - عبد الحليم عويس، دولة بني حماد، صفحة رائعة من التاريخ الجزائري، دار الشروق، ط.1، 1980، ص.33. - وانظر عبد العزيز (سالم)، المغرب الكبير، ج. 2. العصر الإسلامي، دار النهضة العربية بيروت 1989 ص.216. وانظر دبور

(2) - عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج. 1، 169/ ط. 2، مكتبة الحياة، 1965. - وانظر محمد شيت خطاب، قادة فتح المغرب العربي، ط. 1، 141/ دار الفتح للطباعة والنشر.

(3) - حسين مؤنس، فتح العرب للمغرب، مكتبة الآداب بالجماميز، ط. 1، 1947، ص.164.

تخطيط هذا المسجد ويبدو أن تأثير المساجد المشرقية الأولى التي تعود إلى بداية العهد الإسلامي واضحة على هذا المسجد، مثل المسجد الأموي بدمشق الذي بني هو الآخر على أنقاض كنيسة، ومحرا به موجه نحو الجنوب بسبب وقوع بلاد الشام شمال القبلة، الأمر الذي لا يتناسب مع موقع مدينة ميله التي بحكم موضع موقعها الجغرافي والفلكي الواقع بين خطي طول 34 - 436° شرق خط غرينيتش، وعرض 36 - 50° يتحتم توجيه محراب مساجدها نحو الشرق مع انحناء بزوايه صغيرة نحو الجنوب، وهو الخطأ الذي وقع فيه المعمار الذي ابتناه مستندا على الجامع الأموي.

وصف المسجد:

يقع مسجد ميله العتيق المعروف الآن بمسجد سيدي غانم داخل السور البيزنطي جنوب غرب المدينة عند المدخل الغربي (لوحة 1، ص 1)، وكغيره من المساجد اتخذ له شكلا مستطيلا تبلغ قياساته 26م × 18.3م، وهو متجها من الشرق إلى الغرب وفق مخطط المبني القديم الذي بني فوقه، وبذلك تكون مساحة بيت صلاته 475.8م². تتكون بيت ال لاة ذات الشكل المستطيل من سبع بلاطات عمودية على جدار القبلة متساوية الأبعاد، وأربعة بوائك موازية له محددة على المخطط بنقط زرقاء (لوحة 1، ص 2)، وذلك قبل أن تعرف بيت الصلاة توسعة بإضافة بلاطة على يمين المحراب جهة الغرب وبائكتين واحدة جهة الجنوب خلف المحراب والثانية جهة الشمال لتصبح بذلك بيت الصلاة مكونة من ثمان بلاطات وستة بوائك. وبعد هذه الزيادة لاشك وأن محرابا جديدا يكون قد استحدث خلف المحراب القديم وهو احتمال قائم رغم غياب أدلة مادية تدعم هذا الاتجاه، كما لا نستبعد أن يكون الباب الذي يقع على نفس المحور الذي يقع فيه المحراب القديم هو مكان المحراب الجديد بعد الزيادة (لوحة 1، ص 3)، وحيث أن الرفوع والمخططات الفرنسية المنجزة بعد الاحتلال في الموقع بالذات، تشير إلى جدار ذي تخطيط ومقطع دائري، مما يؤكد صحة الفرضية السابقة، ذلك أن موقع المحراب وشكله لا يتعارض مع ما هو متداول إلى وقتنا هذا .

توسعة المسجد :

وأما ما يتعلق بتاريخ الزيادات التي عرفها المسجد فيصعب تحديد زمنها ومعرفة العصر الذي وقعت فيه، ولا يمكن أيضا معرفة من قام بها بسبب عدم عثورنا على تقارير الحفريات التي أجريت في المسجد، وما هو موجود بحوزتنا لم يتطرق إلى تلك الزيادة، ولذلك نشك في أن تكون الحفريات قد أجريت وفق المقاييس العلمية المعمول بها لأنها حسب التقرير المنشور في مجلة الآثار الجزائرية لم يتطرق إلى ما يسمى بالطبقات التاريخية وموقع اللقى الأثرية التي تم العثور عليها، والتي كان من الممكن إفادة الباحث بالمرحلة التاريخية وبالتالي إمكانية وضع تصور للحقب التاريخية التي مر بها المسجد، هذا فضلا عن كون المنقبين لم يحسنوا استغلال واستقراء البقايا الأثرية التي عثروا عليها في المسجد وخاصة القطعة النقدية التي تعود إلى عهد الأدارسة، والكتابة الكوفية والشقف الخزفية وغيرها من اللقى الأثرية التي تم العثور عليها هناك أثناء الحفر وقيل في التقرير أنها تعود إلى العصر الحمادي، والتي لا نعرف عنها شيئا . هذه اللقى لو أحسن استغلالها علميا لكانت معلما هاما لوضع جدول تاريخي للطبقات التاريخية، لذلك صار من الصعب الآن في غياب كل هذه المعطيات تحديد أو حتى التكهن بتاريخ الإضافة.

ومع ذلك، ومما لا شك فيه، فالإضافات تكون قد حدثت بعد ازدياد عدد المؤمنين وتكاثر المصلين وهذا لا يمكن أن يحدث إلا بعد مرور فترة طويلة على بناء المسجد، ودخول عدد كبير من السكان في الإسلام، وتزايد عددهم بالمدينة، مما يجعل الزيادة أمر ضروري، ومما لا شك فيه أيضا أن المسجد قد عرف زيادات كثيرة عبر تاريخه الطويل. ولا ندري إن كان المسجد قد تعرض للخراب إثر الحملة التي قام بها المنصور بن علي الفتوح على المدينة. يذكر البكري⁽¹⁾ أن المنصور هجر سكانها قصرا إلى باغاي وخرب سورها وتركها خرابا. والسؤال الذي يطرح نفسه هل تعرض المسجد أثناء تلك الحملة إلى التخريب من طرف الغزاة شأنه شأن مرافق المدينة ككل، أم بعد أن هجر سكان المدينة التي بقيت خرابا على قول البكري. ثم أعيد تجديده أو أضيفت إليه بعض الزيادات بعيد تلك الفترة أو في وقت متأخر بقليل عن تلك الفترة.

(1) - البكري، المصدر السابق، ص. 64.

والحق، أن ما ينبغي التأكيد عليه هو أن المسجد الأصلي الذي بني في عهد أبو المهاجر دينار لم يكن في تصوري. يمثل هذا الحجم ويمثل هذه المساحة الكبيرة التي يوجد عليها المسجد اليوم، وذلك نظرا لعدد المسلمين القلائل وقتذاك، والذين كان معظمهم يتشكل من الفاتحين مع قلة الإمكانات وقلة عدد السكان الداخلين في الإسلام، لذلك أتصور أن المسجد الأصلي الذي بني في ذلك العهد كان لا يتعدى حجمه حجم مصلى صغير يكفي لعشرات المؤمنين فقط ولا يرق إلى مستوى حجم وسعة المسجد الحالي. غير أن المؤكد أيضا هو أن ذلك المسجد كان بمثابة النواة الأساسية التي توسع من حولها المسجد وأخذ يكبر ويتسع مع مرور الوقت كلما ازداد عدد المصلين وكلما دعت الضرورة لذلك إلى أن أصبح بالحجم الذي صار عليه قبيل الاحتلال الفرنسي للجزائر وتحويله إلى ثكنة عسكرية.

وأما الزيادات الهامة فأتصور أنها وقعت في العهد الحمادي . كما أن وجود دار إمارة بالمدينة في القرن الرابع الهجري، واتخاذها مقرا للحاكم الحفصي في القرن السابع الهجري، دليل على أهمية المدينة ودورها السياسي والديني والثقافي، مما جعلها تعمل على اجتذاب واستقطاب الناس للهجرة إليها لما توفره من أمن ورخاء وغير ذلك من المزايا التي قد لا تتوفر في الضواحي وهذا يؤدي بدوره إلى زيادة عدد المصلين مما يقتضي الزيادة في حجم المسجد.

ولكن الصورة التي نراه بها اليوم نرجح أنها تعود إلى الفترة العثمانية أو إلى أواخر ذلك العهد قبل تحويله عام 1837م إلى ثكنة عسكرية، محدثا عليه تغييرا كبيرا، ومن جملة ما قام به بناء طابقا علويا فوق بيت الصلاة، وإنشاء بنايات في الصحن الأمامي للمسجد في الجهة الشرقية، وإقامة بناية أخرى في وسط الجدار الشمالي مكونة من طابق واحد أنظر المخططات (لوحة 1).

مكونات المسجد:

1 - الأبواب:

يحتوي المسجد في شكله الحالي على ثلاثة أبواب ؛ باب رئيسي يتوسط الجدار الشرقي وهو باب في اعتقادي أصلي أي قدم يرجع إلى فترات قديمة سابقة للعهد

العثماني، وباب ثاني في الجدار الجنوبي خلف المحراب وهو أيضا يبدو لي أنه أقدم لأنه يتوسط الجدار الجنوبي خلف المحراب القديم على نفس مستوى أرضية بيت الصلاة. والباب الثالث يتوسط الجدار الغربي وهو حديث العهد يعود إلى الفترة الاستعمارية يفضي إلى الطابق الأول المستحدث فوق بيت الصلاة، كما عمل على إزالة المئذنة التي كانت تقع في الركن الشمالي الشرقي حسب مخططات الجيش الفرنسي⁽¹⁾.

2 - المحراب:

إلا أن اللافت للانتباه في هذا الجامع هو الموقع الغريب للمحراب الذي يتوسط الجدار الجنوبي عوض وضعه في الجهة الشرقية حتى يكون موجهًا نحو القبلة حسب الموقع الفلكي لشمال إفريقيا بالنسبة لمكة المكرمة، ولا بأس أن ينحني قليلا إلى الجنوب، إن هذه الوضعية تذكرنا بمحراب الجامع الأموي بدمشق، على أن هذه الظاهرة لم تتكرر كثيرا في مساجد المغرب الأوسط غير أننا نجدها تظهر في بعض المساجد الجزائرية وخاصة في القرن الخامس الهجري في العهد الحمادي في مسجد قلعة بني حماد، وفي العهد المرابطي في المسجد الكبير بالجزائر العاصمة والمسجد الكبير بتلمسان، كما تكررت أيضا هذه الظاهرة في العهد العثماني في الجامع الجديد بالجزائر العاصمة وهو جامع حنفي. ويمكننا أن نتساءل فيما إذا كان لهذا المسجد تأثير على توجيه القبلة في المساجد المذكورة أم هو محض الصدفة فقط.

بني المسجد كما سبق وأن أشرنا على أنقاض بناية رومانية، لذلك فلا غرابة إن وجدنا أساساته موضوعة مباشرة على جدران الكنيسة، التي استعملت كأساسات لبناء جدران المسجد، وقد كشفت حفريات 1969 أن الجدار الشمالي المبني بالدبش شيد على قطع حجرية كلسية ضخمة مستطيلة الشكل، كما أدت نتائج الحفريات إلى اكتشاف جدار من العصر الوسيط مبني بالدبش موازيا للجدار الشمالي، وشيد الجدار الغربي بدوره على أسس رومانية مكونة من قطع حجرية مربعة منتظمة، ونفس الشيء بالنسبة لأساس الجدار الجنوبي الذي يقع فيه المحراب فهو مكون من قطع كلسية أيضا.

(1) - Projet de restauration de la mosquée sidi Ghanem de Mila ,bureau d'étude Larabaet Bouhouhou, , Chaf de projet, Boulkroun 2005 ,p.31

على أن اللافت للانتباه هو وجود طبقة جيرية رقيقة بيضاء بحجم 01سم أو أكثر بقليل على عمق يتراوح بين 10 و15سم بالتقريب تحت سطح الأرضية الحالية وعلى نفس المستوى، يمكن مشاهدتها في الكثير من المقاطع وفي أماكن عديدة من المسجد، الأمر الذي يجعلنا نعتقد أنها شكلت أرضية المسجد في فترة ما من تاريخه وهو احتمال وارد في انتظار تنقييات أخرى للكشف عن هذه الطبقة والتأكد من صحة هذا الاحتمال.

3 - بيت الصلاة:

تحتوي بيت الصلاة على أربعين عمودا مختلفة الأحجام أسطوانية الشكل، بعضها رومانية الأصل والبعض الآخر وظفت فيه قطع رومانية، صنع البعض منها من الحجر الكلسي والبعض الآخر من بالآجر الأحمر أو الآجر النقي (لوحة 4 ص 2-1). تقوم هذه الأعمدة، على قواعد عبارة عن قطع حجرية مربعة الشكل، موضوعة هي بدورها على قواعد وأسس رومانية بارتفاع يتراوح بين 02.5م و03م للصعود بمستوى الجدار إلى أرض المسجد (لوحة 3 ص 4، 3). بعضها اختل توازنه وانحنى قليلا عن المحور بسبب الثقل والإهمال (لوحة 3 ص 5). يعلو الأعمدة عقود متجاوزة تنتهي بتدبيب، مبنية بالآجر (لوحة 3 ص 2، 1)، تربطها أخشاب تثبت ما زالت آثارها جلية في الأقواس، وهو ما يؤكد أصالة المسجد⁽¹⁾. تركز العقود على تيجان متنوعة الأشكال منها البسيطة ذات شكل أسطواني خالي من الزخرفة، ومنها المعروفة باسم الكورنثية المكونة من ثلاثة صفوف وأوراقها بسيطة ومحورة (لوح 4 ص 4). تماثل تيجان جامع قسنطينة وجامع قلعة بني حماد⁽²⁾. بينما احتوى البعض على أوراق تشبه إلى حد كبير ورقة الأكانتس بتفاصيل عروقها (لوح 4 ص 3)، وتشبه إلى حد أكبر أيضا بعض التيجان المستعملة في جامع قسنطينة (لوح 4 ص 5). الأمر الذي يقودنا إلى الاعتقاد أنها تعود إلى العصر الحمادي بحكم أن التاريخ السياسي لهذه الدولة في المغرب

(1) - س. أ. باغلي، منير بوشناق، المرجع السابق، ص 11.

(2) - Rachid Bourouiba, L'art Religieux Musulman En ALGERIE, 2ème éd. SNED Alger 1981 p. XVII

الأوسط وخاصة إقليم الشرق الجزائري الذي يعتبر من أول وأهم الممتلكات الحمادية على مدى قرن ونصف من وجود هذه الدولة، ولعل ما يدعم هذا الرأي أيضا في نظرنا هو القطع الحصية العديدة التي عثر عليها في تلك الحفريات والتي نقش عليها زخارف نباتية عبارة عن وريادات وأزهار أضيفت لتلك التي عثر عليها في الحفريات السابقة حسب تقرير الحفريات، وقد جاءت هذه المعطيات لتكون سندا إضافيا وعونا لفهم طبيعة المبنى فهما جيدا، لما لها من تشابه كبير بتلك التي عثر عليها في قلعة بني حماد⁽¹⁾ سواء في أسلوب زخرفتها وتقنية نقوشها أو في مواضعها الزخرفية. لذلك لا نستبعد أن تكون تيجان مسجد ميلة من العصر الحمادي أيضا على غرار تيجان جامع قسنطينة التي تتقاطع معها ومع بعض تيجان مسجد القلعة في الكثير من العناصر والخصائص الفنية والزخرفية.

ومن هنا يمكن القول أن فرضية وقوع أعمال توسيع أو تجديد في العهد الحمادي أمر غير مستبعد تماما وهو أقرب على المنطق وإلى الصواب، بل أكاد أجزم أن بيت الصلاة الأولية تعود إلى الفترة الحمادية قبل أن تشهد إضافة رواق في كل من الجهات الشمالية والغربية والجنوبية من قاعة الصلاة، وتبدو أن اللمسة الحمادية واضحة في الأعمدة والتيجان التي تتقارب كثيرا مع نظيرتها في الجامع الكبير بقسنطينة فضلا عن الزخارف المعثور عليها هناك رغم أننا لا نعرف مصير هذه الزخارف الحصية سواء النباتية أو الكتابية التي تحدث عنها التقرير، والتي نعتقد أنها كانت تزين المسجد وخاصة المحراب على غرار الجامع الكبير بقسنطينة. كما أن المخطط الأصلي للجامع المحددة معالمه بخط أزرق منقط قبل الزيادة (لوحة 1، ص. 2) فهو يتكون من سبعة بلاطات مثله مثل مسجد أبي مروان بعنابة والذي يعود للعصر الزيري وإن اختلفا معا في عدد الأساكيب، وأما الجامع الكبير بقسنطينة فإنه يتكون فقط من 6 بلاطات. ولذلك فإن فرضية إرجاعه إلى الفترة الحمادية تفرض نفسها بقوة الأدلة المادية المذكورة سابقا.

على أن ذلك لا ينفي إطلاقا أن المسجد لم يكن محل أعمال تجديد أو إصلاح، أو حتى إضافات تكون قد جرت في فترات تاريخية لاحقة، سواء داخل المسجد أو

(1) - س. أ. باغلي، منير بوشناق، المرجع السابق، ص. 11.

خارجه. ومن بين العناصر التي نعتقد أنها جددت أو استحدثت لاحقا نذكر المدخل الرئيسي للجامع (لوحة 2: 2، 3، 4) كما هو واضح بتميزه بشكل زخرفته الكتابية التي تزين جانبي الواجهة يمينا ويسارا، وإذا كان من الصعب تحديد تاريخ بنائه أو العصر الذي يرجع إليه بسبب عدم وجود معطيات تاريخية وفنية، فلعله من السهل التكهن بذلك، اعتمادا وانطلاقا من الزخرفة الكتابية التي تزين واجهة مدخله، إذ أن هذا النوع من الزخارف الكتابية ذات الزوايا التريعية بدأ يظهر مع ظهور الموحدين في المغرب ثم انتشر في عهد خلفائهم الزيانيين في الجزائر، والمرينيين في المغرب الأقصى والحفصيين في تونس، ثم قل استعمالها في العهد العثماني أو كادت أن تختفي تماما في الجزائر. لذلك فالكتابة الكوفية المكتوبة بالأجر والتي تعرض جزء كبير منها إلى ضياع ولم يبق منها إلا كلمتي (بركة محمد) فنعتقد أنها تعود إلى القرن السابع أو الثامن الهجريين عندما كانت المدينة خاضعة لحكم الدولة الحفصية، ومن المحتمل أيضا أن تكون الأروقة الثلاثة المضافة إلى بيت الصلاة قد أضيفت في تلك الفترة أيضا، أي خلال الحكم الحفصي للمدينة في الوقت نفسه الذي جدد أو بني فيه المدخل الشرقي للمسجد، كما نعتقد أيضا أن تلك الفترة عرفت أيضا توسيع المسجد ناحية الشرق، وهذا بإحداث صحن يبلغ 10م.

ولعل ما يلفت الانتباه أيضا إلى هذا المسجد هو شكل المدخل الذي يتميز بشكل عقده المتجاوز، وزخارفه التي تشبه سنابل القمح المشكلة بالأجر الأحمر المكوي على غرار الزخرفة الكتابية المنقوشة في واجهة المدخل (لوحة 2، ص. 4، 2).

لا شك أن ما يدعم أصالة وأقدمية هذا المسجد، فضلا عن ما سبق ذكره من معطيات تاريخية وأثرية، هو بدون أدنى شك القطعة النقدية التي عثر عليها أثناء الحفريات التي جرت في المسجد وهي تعود إلى العهد الإدريسي، وعلى الرغم من أننا لا نعرف مكان حفظها ولا تاريخ ومكان ضربها، ولا نعرف ما محتوي النص المكتوب عليها، إلا أننا نعتقد أن المسجد وفق هذا المعطى الأثري المتمثل في النقد الإدريسي، قد تجلت معالم صورته التاريخية أكثر، وبذلك يمكن الذهاب به إلى أبعد من الفترة الحمادية. فهذا النقد هو دليل قاطع على تداول نقود الدولة الإدريسية في مدينة ميله مما يرجح وجود

إما تبادل تجاري في تلك الفترة بين مختلف أقاليم الدولة الأغلبية وأقاليم الدولة الإدريسية التي كانت ميلّة إقليميا تابعا لها، والاحتمال الثاني ربما كان لهذه المدينة تبعية سياسية للدولة الأدارسة في المغرب خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين سواء كان هذا الحكم مباشرة نظرا لامتداد حكمهم من الريف غربا إلى حضنة قسنطينة شرقا⁽¹⁾، أو لأحد ولائها الذين حكموا في وسط وغرب الجزائر وشكلوا بها إمارات كالسليمانية وغيرها خلال القرن الرابع الهجري. وضربوا النقود بأسماء الأمراء الذين حكموا هذه الأقاليم .

الخاتمة:

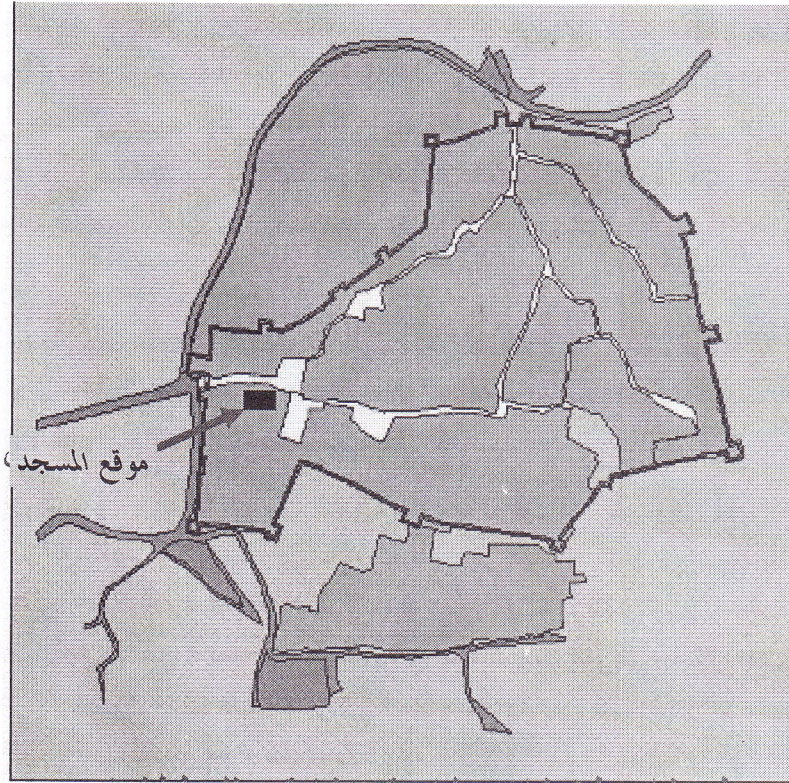
من خلال هذا العرض يمكن القول أن مسجد أبي المهاجر دينار المسمى سيدي غانم حاليا قد بني فعلا في عهد هذا القائد مع دار الإمارة التي لم يبق منها شيئا في وقتنا الحاضر، ولكنه تعرض على مر الزمن إلى الكثير من التغيير والتجديد وربما التحويل الكلي خاصة في العهد الزيري على إثر الحملة التي قادها المنصور بن علي الفتوح عام 378هـ على هذه المدينة وتركها خرابا. غير أن العنصر الذي نعتقد أنه حافظ على أصالته هو المحراب وإن جدد فمكانه لم يتغير.

ولكن المسجد في العصر الحمادي أعيد بناؤه، وفي هذه الفترة أصبحت بيت الصلاة تتكون ست بلاطات عمودية على جدار القبلة وأربعة بوائك موازية له ويكون المسجد قد حافظ على العديد من التيجان التي أعيد استعمالها. كما عرف المسجد أيضا بناء سور من الدبش لتحديد بيت الصلاة .

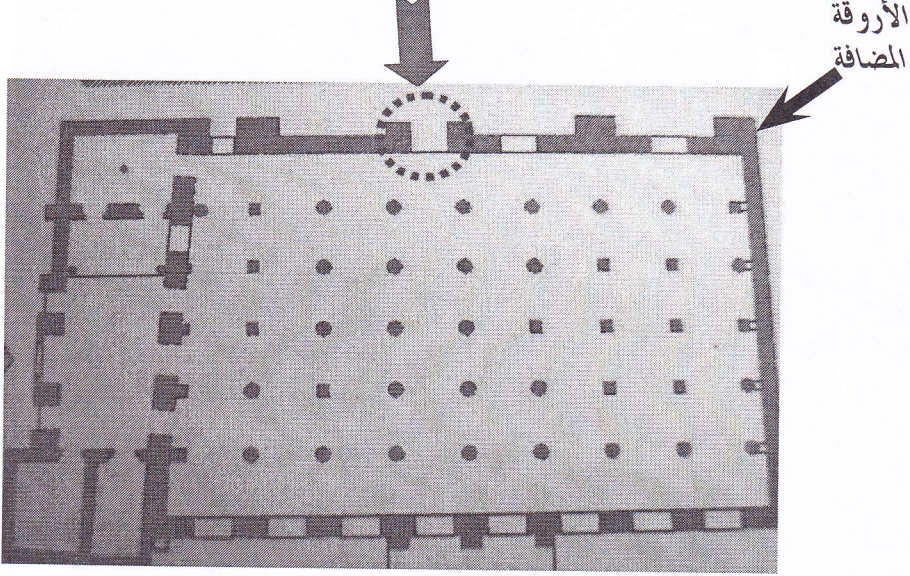
وفي فترة متأخرة، زيد في بيت الصلاة ربما يكون ذلك قد حدث في العصر الحفصي أو مع بداية العصر العثماني والتي صارت على إثر ذلك مكونة من سبع بلاطات، علاوة على إعادة تجديد المدخل الشرقي والرئيس للمسجد الذي زين بزخرفة كتابية مشكلة بالآجر الأحمر، وبعد سقوط المدينة في يد المستعمر الفرنسي، حول المسجد إلى ثكنة عسكرية، وأدخلت عليه الكثير من التغييرات منها على سبيل المثال لا الحصر بناء طابق ثاني داخل المسجد، وتم بناء مساكن ومكاتب في الجهة الشرقية والجهة الشمالية (1) - عبدا لرحمان الجيلالي، المرجع السابق 1/247، مبارك الهلالي الميلي، تاريخ الجزائر في القدم والحديث، 2/89، النهضة الجزائرية، 1963م

للمسجد ما زالت قائمة إلى يومنا هذا، وهدمت مئذنة المسجد التي كانت تقع في الركن الشمالي الشرقي (الصورة 2)، وهكذا تم تغيير الوجه الأصلي لأقدم مسجد في الجزائر وثاني مسجد في إفريقيا والأندلس، والذي يوجد الآن في حالة جد سيئة، وهو في حاجة إلى تدخل سريع لإنقاذ ما يمكن إنقاذه بعد أن اختفت معالم المحراب كلية في هذه السنوات الأخيرة والتي كانت شاهدة على اصالة المسجد وعراقته، ولا شك أن الدور سيأتي على بقية العناصر الأخرى إن استمر الإهمال واللامبالاة من طرف الجهات المسؤولة محليا ووطنيا وهو ما لا نتمناه لأقدم أثر في بلادنا الذي يعد فخرا لبلادنا.

لوحة 1 مخطط المدينة القديمة

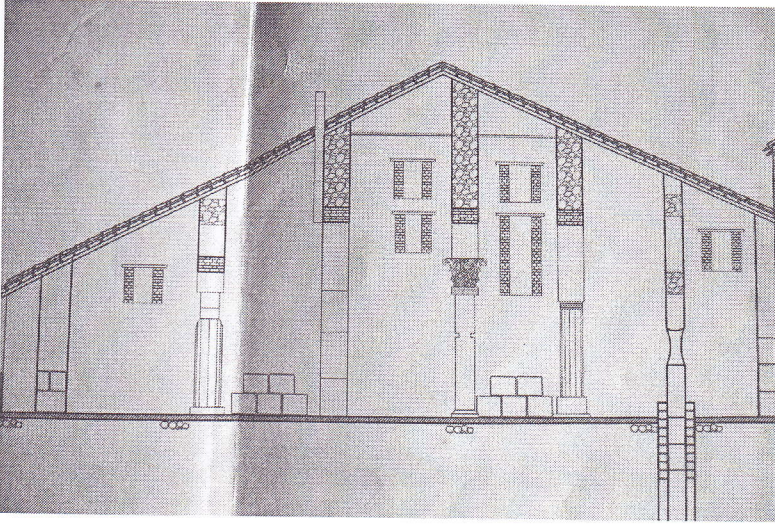


صورة 2
المحراب الثاني المفترض بعد الزيادة

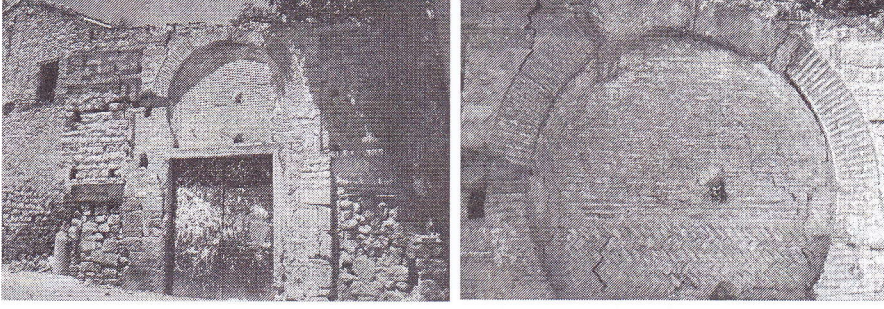


صورة 3 : ع/ مكتب دراسات ميلة لعراب وبوحوحو

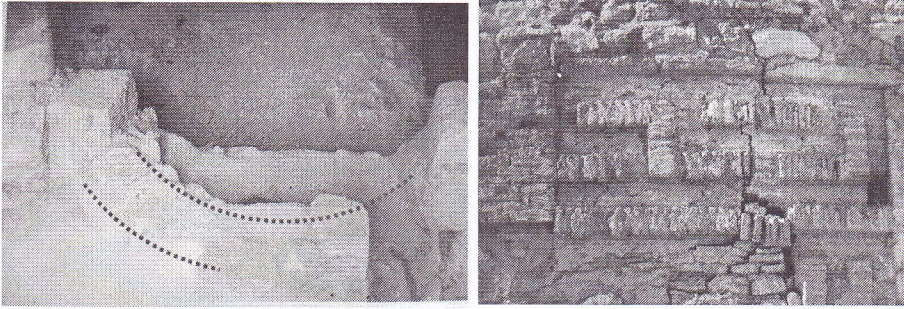
لوحة 3



صورة 1 :
مقطع للواجهة الغربية (ع/ مكتب دراسات ل. وب.)



المدخل الرئيسي والعقد الحدوي الذي يعلوه (صورة 2-3)



زخرفة كتابية على المدخل الرئيسي (صورة 4-5) موضع لبقايا محراب الجامع

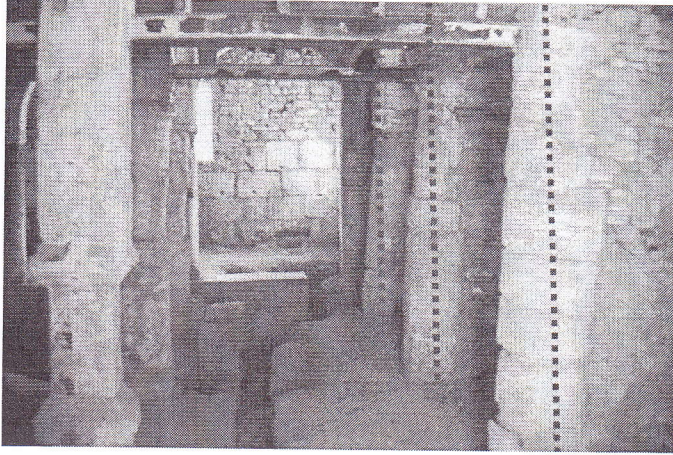
لوحة 4



أعمدة وأقواس مبنية بالأجر وتبدو العوارض المعدنية الحاملة للطابق الأول
المستحدث في العهد الاستعماري (صورة : 1-2) (ع/ل. وب)



أسس رومانية شيدت عليها أعمدة المسجد (صورة: 3-4)



أعمدة انحنت من شدة الثقل (صورة: 5) (ع/ل. وب)

لوحة 5



الأعمدة الرومانية المعاد استعمالها
في بناء المسجد (صورة 1-2)



تاجان كورنثيان مسجد ميلة (صورة: 3-4)



تاج كورنثي من مسجد قسنطينة



مصادر ومراجع البحث:

- الأدرسي(الشريف) وصف إفريقيا الشمالية والصحراوية، جزء من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، تصحيح ونشر هنري بيريس، الجزائر 1372هـ/1957م، ص66-67.
- البكري(أبو عبد اله)، كتاب المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب وهو جزء من أجزاء كتاب المسالك والممالك، مكتبة أمريكا والمشرق، ميزوناف 1956، ص.64.
- أبو المحاسن (ابن تغري بردي)،النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة .الولايات المتحدة .جامعة كاليفورنيا 1909،ص.
- القاضي النعمان، افتتاح الدعوة، تحقيق فرحات الدشراوي، الشركة الوطنية للتوزيع تونس ط.2، ديوان المطبوعات الجامعية،الجزائر،ص.50-51.
- سيد أحمد باغلي ومنير بوشناق، أبحاث وأعمال، مجلة الآثار الجزائرية العدد. 5، 1971-74، ص11.
- عبد العزيز (سالم)،المغرب الكبير . ج 2 .العصر الإسلامي .دار النهضة العربية بيروت 1989 ص 216.
- المراكشي (عبد الواحد)،المعجب في تلخيص أخبار المغرب .تحقيق سعيد العريان .القاهرة 1963. ص442.
- لمجهول، كتاب الإستبصار في عجائب الأمصار،تقديم الفريد دوكريمد.فيينا .المطبعة الملكية -1852ص.166.
- المراكشي (عبد الواحد)،المعجب في تلخيص أخبار المغرب .تحقيق سعيد العريان .القاهرة 1963. ص442.
- موسى لقبال، دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية،(ش.و.ن.ت)، الجزائر 1979، ص.188.
- ياقوت الحموي (شهاب الدين)، معجم البلدان، ج.5، دار بيروت للطباعة والنشر، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، 1404هـ/ 1984م، ص.244.
- CAMBUZAT(PL),Levolution des cites du tell en ifriquia . du 7 au 11 siecle opu Alger .1982.p.166
- S.Gsel, Atlas Archéologique de l' Algerie,feuille17,p.3,4. -
- Rachid Bourouiba, L'art Religieux Musulman En ALGERIE , 2é éd. SNED Alger1981 p..XVII .
- Projet de restauration de la mosquée sidi Ghanem de Mila ,bureau d'étude Laraba & Bouhouhou, Chef de projet, Boulkroun, Nov. 2005.